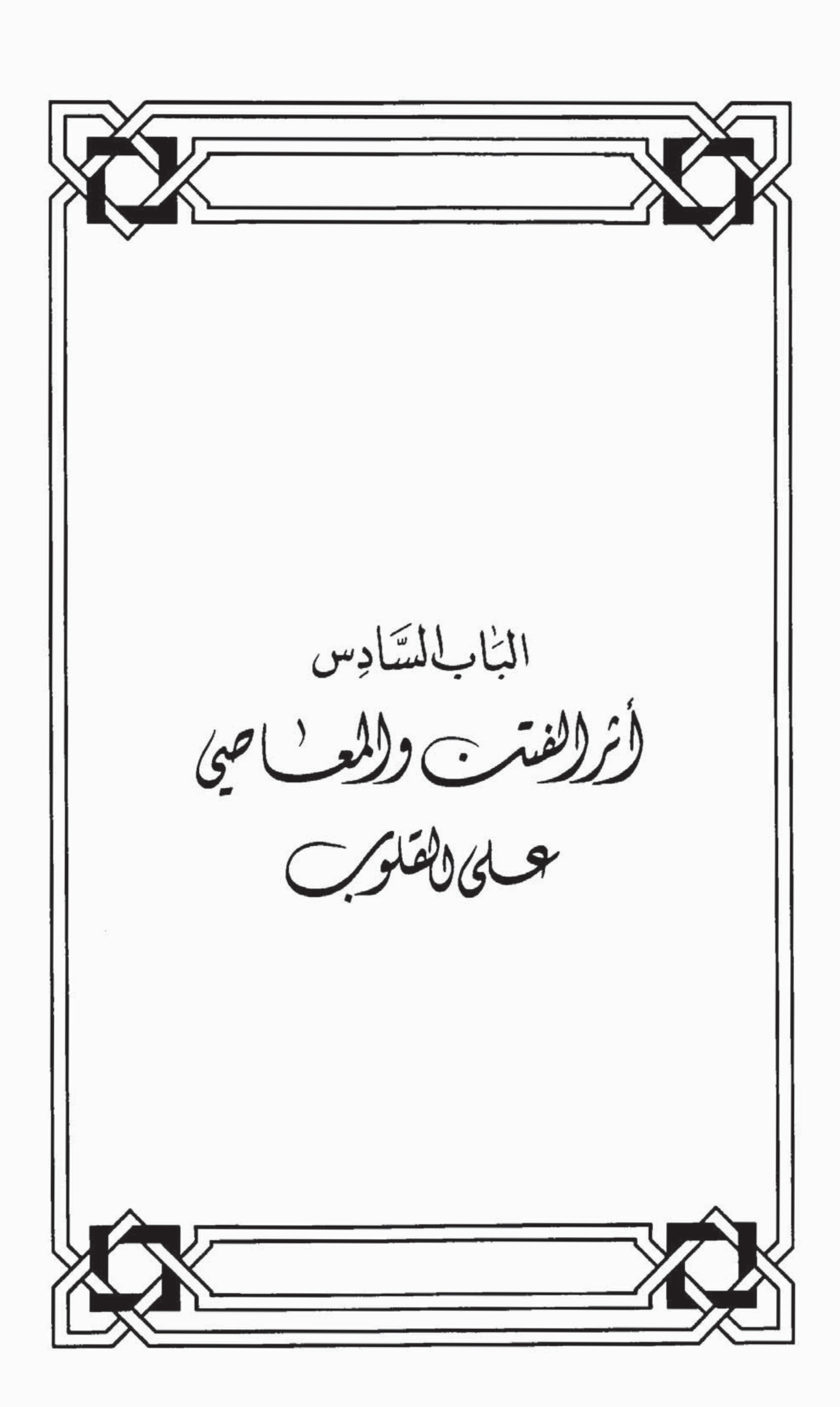


البَابُ السَّادِسُ

أثر الفتن والمعاصي على القلوب

الفصل الأول

عرض الفتن على القلوب[1]

قال حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ:

(تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلوب كعَرْض الحصِيرِ عُوداً عُوداً. فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَها نُكِتَتْ فيهِ نُكتَةٌ سَوْدَاءُ، وأيُّ قَلبٍ أنكرَهَا نُكِتَتْ فيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حتى تَعُودَ القُلوبُ عَلَى قَلْبين:

قَلْبٍ أسْود مُرْبَادّاً[2] كالكُوزِ مُجَخِّياً[3]. لا يعْرِفُ معْرُوفاً ولا يُنْكِرُ مُنْكَراً، إلاَّ ما أُشْرِب منْ هَواهُ.

وَقَلْبٍ أبيضَ، لا تضُرُّهُ فِتْنةٌ مَا دامتِ السمواتُ والأرضُ)[4].

---

(١) جاء هذا الفصل في الباب الأول بحسب ترتيب المؤلف.

(٢) مرباداً: الربدة لون بين السواد والغبرة.

(٣) كالكوز مجخياً: أي مائلاً، أي كالكوز المائل الذي لا يثبت فيه الماء.

(٤) أخرجه مسلم برقم (١٤٤) ولفظه:

عن حذيفة؛ قال: كنا عند عمر. فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه. فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل. قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة. ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج موج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القوم. فقلت: أنا. قال: لله أبوك! قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير الفتن على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض. والآخر أسود مرباداً، كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكر. إلا ما أشرب من هواه».

فشبه عرض الفتن على القلوب شيئاً فشيئاً كعرض عيدان الحصير، وهي طاقاتها شيئاً فشيئاً.

وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين:

قلبٌ إذا عرضت عليه فتنة أُشربها، كما يشرب السفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس، وهو معنى قوله: «كالكوز مجخياً»، أي مكبوباً منكوساً، فإذا اسود وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران متراميان به إلى الهلاك:

- أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر، فلا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، وربما استحكم فيه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والسنة بدعة والبدعة سنة، والحق باطلاً والباطل حقاً.

- الثاني: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ﷺ، وانقياده للهوى واتباعه له.

وقلبٌ أبيض: قد أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتن أنكرها وردها، فازداد نوره وإشراقه وقوته.

والفتن التي تعرض على القلوب، هي أسباب مرضها، وهي:

- فتن الشهوات.

- وفتن الشبهات، فتن الغي والضلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل.

فالأولى: توجب فساد القصد والإرادة.

والثانية: توجب فساد العلم والاعتقاد.

• • •

وقد قسم الصحابة، رضي الله عنهم، القلوب إلى أربعة، كما صح عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قوله:

«القلوب أربعة:

قلب أجرد، فيه سراج يزهر، فذلك قلب المؤمن.

وقلب أغلف، فذلك قلب الكافر.

وقلب منكوس، فذلك قلب المنافق، عرف ثم أنكر، وأبصر ثم عمي.

وقلب تمده مادتان: مادة إيمان، ومادة نفاق، فهو لما غلب عليه منهما».

فقوله: «قلب أجرد» أي متجرد مما سوى الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ، فقد تجرد وسلم مما سوى الحق.

و«فيه سراج يزهر» وهو مصباح الإيمان: فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغي، وبحصول السراج فيه إلى إشراقه واستنارته بنور العمل والإيمان.

وأشار بالقلب الأغلف: إلى قلب الكافر، لأنه داخل في غلافه وغشائه، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان، كما قال تعالى، حاكياً عن اليهود:

﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ﴾ [البقرة: ٨٨].

وهو جمع أغلف، وهو الداخل في غلافه، كغلف وأقلَف، وهذه الغشاوة هي الأكِنَّة التي ضربها الله سبحانه وتعالى على قلوبهم، عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله. فهي أكِنَّة على القلوب وَوَقْرٌ في الأسماع، وعمىً في الأبصار، وهي الحجاب المستور عن العيون في قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا

مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الإسراء ٤٥ ـ ٤٦].

فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجربة المتابعة، ولّى أصحابها على أدبارهم نفوراً.

وأشار بالقلب المنكوس ـ وهو المكبوب ـ إلى قلب المنافق، كما قال تعالى: ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ [النساء ٨٨]. أي نكسهم وردهم في الباطل الذي كانوا فيه، بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة.

وهذا شر القلوب وأخبثها، فإنه يعتقد الباطل حقاً ويوالي أصحابه، والحقَّ باطلاً ويعادي أهله، فالله المستعان.

وأشار بالقلب الذي له مادتان إلى القلب الذي لم يتمكن فيه الإيمان، ولم يزهر فيه سراجه، حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به سبحانه وتعالى رسوله ﷺ، فيه مادة منه ومادة من خلافه، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر. والحكم للغالب وإليه يرجع.

* * *

الفصل الثاني

أثر المعاصي على القلب[1]

للمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله. ومن ذلك:

[إضعاف تعظيم الرب تعالى]:

ومن (آثارها): أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جلَّ جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولابد، شاء أم أبى، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ على معاصيه.

وربما اغترَّ المغترّ وقال: إنما يحملني على المعاصي حُسن الرجاء، وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبي، وهذا من مغالطة النفس، فإن عظمة الله تعالى وجلاله في قلب العبد يقتضي تعظيم حرماته، وتعظيمُ حرماته يحول بينه وبين الذنوب، والمتجرئون على معاصيه ما قدروه حق قدره، وكيف يقدره حق قدره، أو يعظمه أو يكبره، أو يرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المحال، وأبين الباطل، وكفى بالعاصي عقوبة أن يضمحل من قلبه تعظيم الله جل جلاله، وتعظيم حرماته ويهون عليه حقه.

ومن بعض عقوبة هذا: أن يرفع الله عزَّ وجلّ مهابته من قلوب الخلق،

---

(١) جاء هذا الموضوع في كتاب (الجواب الكافي)، ص١١٩ ـ ١٣٠.

فيهون عليهم، ويستخفون به كما هان عليه أمره واستخفَّ به، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس، وعلى قدر تعظيمه لله وحرماته يعظم الناس حرماته، وكيف ينتهك عبد حرمات الله، ويطمع أن لا ينتهك الناس حرماته؟ أم كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس، أم كيف يستخف بمعاصي الله ولا يستخف به الخلق؟.

وقد أشار سبحانه إلى هذا في كتابه عن ذكر عقوبات الذنوب وأنه أركس أربابها بما كسبوا وغطى على قلوبهم، وطبع عليها بذنوبهم، وأنه نسيهم كما نسوه، وأهانهم كما أهانوا دينه وضيعهم كما ضيعوا أمره ولهذا قال تعالى في آية سجود المخلوقات له: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، فإنهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم، فلم يكن لهم من مكرم، بعد أن أهانهم الله، ومن ذا يكرم من أهانه الله؟ أو يهين من أكرمه الله؟.

[وقوع الخوف والوحشة في القلب]:

ومن (آثارها): ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي، فلا تراه إلا خائفاً مرعوباً، فإن الطاعة حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أماناً، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف.

فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر، إن حركت الريح الباب قال: جاء الطلب، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيراً بالعطب، يحسب كل صيحة عليه، وكل مكروه قاصداً إليه، فمن خاف الله آمنه من كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء.

بذا قضى الله بين الخلق مذ خُلقوا إن المخاوف والإجرام في قرن

ومن عقوباتها: أنها توقع الوحشة العظيمة في القلب، فيجد المذنب نفسه مستوحشاً، وقد وقعت الوحشة بينه وبين ربه، وبينه وبين الخلق، وبينه وبين نفسه، وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة، وأمرُّ العيش عيش المستوحشين الخائفين، وأطيبُ العيش عيش المستأنسين.

فلو نظر العاقل ووازن بين لذة المعصية وما تولده فيه من الخوف والوحشة لعلم سوء حاله وعظيم غبنه، إذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف:

إذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس

وسر المسألة: أن الطاعة توجب القرب من الرب سبحانه، وكلما اشتد القرب قوي الأنس، والمعصية توجب البعد من الرب، وكلما ازداد البعد قويت الوحشة، ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذي بينهما، وإن كان ملابساً له قريباً منه، ويجد أنساً قوياً بينه وبين من يحب، وإن كان بعيداً عنه.

والوحشة سببها الحجاب، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة، فالغفلة توجب الوحشة، وأشد منها وحشة المعصية، وأشد منها وحشة الشرك والكفر، ولا تجد أحداً يلابس شيئاً من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب ما لابسه منه فتعلو الوحشة وجهه وقلبه، فيستوحش منه.

[صرف القلب عن صحته]:

ومن (آثارها): أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلى مرضه وانحرافه، فلايزال مريضاً معلولاً، لاينتفع بالأغذية التي بها حياته وصلاحه، فإن تأثير الذنوب في القلوب كتأثير الأمراض في الأبدان، بل الذنوب أمراض القلوب، ولادواء إلا تركها، وقد أجمع السائرون إلى الله على أن

القلوب لاتعطى مناها حتى تصل إلى مولاها، ولا تصل إلى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها، فيصير نفس دوائها، ولا يصح لها ذلك إلا بمخالفته هواها، وهواها مرضها، وشفاؤها مخالفته، فإن استحكم المرض قتل أو كاد، وكما أن من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه، كذلك يكون قبله في هذه الدار في جنة عاجلة، لا يشبه نعيم أهلها نعيم ألبتة، بل التفاوت الذي بين النعيمين كالتفاوت الذي بين نعيم الدنيا والآخرة، وهذا أمر لا يصدق به إلا من باشر قلبه هذا وهذا، ولا تحسب أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة كذلك، أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب؟.

وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة، وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب، فكل من أحبَّ شيئاً غير الله عذب به ثلاث مرات في هذه الدار: فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه وأنواع المعارضات، فإذا سلبه اشتد عذابه عليه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ: فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجى عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد.

فالهمُّ والغمُّ والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمر، حتى

يردها الله إلى أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر.

فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنساً بربه، واشتياقاً إليه وارتياحاً بحبه وطمأنينة بذكره؟ حتى يقول بعضهم في حال نزعه: واطرباه ويقول الآخر: إن كان أهل الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب، ويقول الآخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها، ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف، ويقول الآخر: أن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

فيا مَنْ باع حظه الغالي بأبخس الثمن، وغبن كل الغبن في هذا العقد، وهو يرى أنه قد غبن، إذا لم تكن لك خبرة بقيمة السلعة فاسأل المقوِّمين. فيا عجباً من بضاعة معك اللهُ مشتريها، وثمنها جنة المأوى، والسفير الذي جرى على يده عقد التبايع، وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول ﷺ.

[العمى في بصر القلب]:

ومن (آثارها): أنها تعمي بصر القلب، وتطمس نوره، وتسد طرق العلم وتحجب مواد الهداية.

وقد قال مالك للشافعي رحمهما الله تعالى، لما اجتمع به الشافعي ورأى تلك المخايل: إني أرى الله تعالى قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية.

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل، وظلام المعصية يقوى، حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم، فكم من مهلك يسقط فيه وهو لا يبصر، كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب، فيا عزة السلامة ويا كثرة العطب، ثم تقوى تلك الظلمات، وتفيض من القلب إلى الجوارح، فيغشى القلب منها سواد، بحسب قوتها وتزايدها، فإذا كان الموت ظهرت

في البرزخ، فامتلأ القبر ظلمة، كما قال النبي ﷺ: (إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة، وإن الله ينورها بصلاتي عليهم)[1]، فإذا كان يوم المعاد وحشر العباد علت الظلمة الوجوه علواً ظاهراً يراه كل أحد حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة، فيالها من عقوبة، لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها إلى آخرها، فكيف بقسط العبد المنغص النكد المتعب في زمن هو ساعة من حلم؟ والله المستعان.

* * *

(١) رواه مسلم (٩٥٦).